أوسع موسوعة ثقافية جزائرية تنتظر الباحثين
(تاريخ الجزائر الثقافي)

أ.د/ عبد الكريم عوفي
جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية

حدَّثنا شيخ المؤرخين وأستاذ الأجيال الدكتور أبو القاسم سعد الله في حديث صريح للصحفي مراد وزناجي، - حين سُئل عن عدد من الأعلام الجغرافية احتضنت مسيرته الفكرية - فقال :" قمار مطلع الفجر، ووادي سوف واحتي الوارفة، والزيتونة مهد العلم والأدب، ودار العلوم بيت سدنة اللغة العربية والدراسات الإسلامية الرصينة، وبن عكنون جنتي بعد عذاب الغربة ...، ومنيسوتا نقطة التقاء حضارتين عندي (حضارتنا وحضارتهم)، وآل البيت تجربة الجمع بين تراث الشرق ومنهج الغرب ...". إنه صاحب أكبر موسوعة ثقافية جزائرية، تاريخ الجزائر الثقافي، وأحد الأعلام الذين شكلوا على مر السنين الثقافة الوطنية المتميزة، كابن الفكون، وابن قنفذ، وأبي رأس المعسكري، وابن باديس، وأطفيش، وابن أبي شنب، والإبراهيمي، ومالك ابن نبي، ومفدي زكرياء، ومحمد العيد، وغيرهم كثيرون ممن تعطر سيرتهم كتب التراجم والفهارس والطبقات .

لا يخفى على المثقف النزيه والطالب النجيب أن أبا القاسم سعد الله، العالم الموسوعي؛ المؤرخ، والمحقق، والرحالة، والأديب، والصحفي، والمترجم، والمصلح الاجتماعي، قد أثرى المكتبة الوطنية والعربية، بل والعالمية بعشرات من الكتب، ولاسيما المطولة منها، وألف عقولا عبر مسيرته التعليمية في الجامعة الجزائرية وفي عدد من الجامعات خارج الجزائر؛شرقا وغربا، إذْ كوَّن أجيالا من الباحثين كان لهم الأثر الطيب على الحركة العلمية والفكرية .

وكتابه الذي نعرضه للقراء اليوم يعد من أهم نتاجاته الفكرية، نشرته دار الغرب الإسلامي، عام 1998م،وهو يقع في تسعة أجزاء،من الحجم العادي .

وقد ذكر المؤلف أنه يحبذ تسميته ب (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، لأن ما تضمنه من مواد واسعة ونادرة تتطلب هذه التسمية، لكن الكتاب عُرف في طبعتيه الأولى والثانية (جزآن) بالاسم المذكور فأبقى عليه كما هو.

أما منهج الأستاذ في الكتاب عامة، فهو تاريخي وصفي تحليلي، اهتم فيه بالمؤسسات التعليمية، والثقافية، والدينية، والفنية، والسياسية، والاجتماعية وغيرها، وبأعلامها خلال فترات زمنية متعاقبة، أي منذ القرن الخامس عشر الميلادي حتى قيام الثورة التحريرية الكبرى عام 1954م .

اعتني في الكتاب بالمؤسسات التعليمية والثقافية على اختلاف مناشطها الفكرية، وبالآثار الفكرية التي أنتجها العلماء، فجاء حديثه عنها في مختلف الأجزاء متسما بالوصف الدقيق والتحليل العلمي والنقد البناء، ففي مجال توصيف الكتاب ومضمونه نجده يذكر آثار المؤلف المخطوطة أو المطبوعة، وينص على اسم المؤلف، وعنوان كتابه (مخطوطا أو مطبوعا)، إن كان مخطوطا فإنه يشير إلى تاريخ نسخه، وناسخه، ومكان وجوده أحيانا، ثم يذكر موضوعه، ويعرض محتواه وخصائصه، ثم يفصل القول في مضامينه .

ولما كان الكتاب ليس فهرسا للمخطوطات فإن المخطوطات التي أوردها، لم يُراع فيها ما درج عليه علماء فن فهرسة المخطوطات من عناصر دقيقة، وليس ذلك تقصيرا منه، وإنما طبيعة الكتاب تطلبت هذا المنهج عنده، وهو بهذا الصنيع قدم خدمة جليلة لخَدَمة التراث الجزائري المخطوط والمطبوع ؛ من طلبة وباحثين، والدكتور سعد الله عالم لا يُشق له غبار في خدمة التراث والتعامل معه، إنه صاحب تجربة طويلة، أفنى عمره في البحث والتنقيب مُرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم، ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا : إن الرجل صاحب مدرسة متميزة كوَّن رعيلا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية، كالتاريخ والآداب والرحلات والاجتماعيات وغيرها.

أما المجالات المعرفية التي تشملها المخطوطات والكتب المذكورة في الكتاب فهي : الفقه، والأصول، والتوحيد، والفرائض، والنوازل، والقرآن وقراءاته، والتفسير، والحديث النبوي الشريف، والإجازات، وعلم الكلام، والتصوف، والمنطق، واللغة، والنحو، والصرف، والمعاجم، والشعر، والقصة، والمسرح، والأمثال، والتاريخ، والتراجم، والسير، والأنساب، والأثبات، والرحلات، والعلوم التجريبية، كالطب، والسحر والخرافة، والتنجيم، والفلك، والزراعة، والفنون الأخرى، كالموسيقى، والرسم، والنحت، والمنمنمات .

وقد ألحق المؤلف الأجزاء الثمانية بجزء تاسع خصصه للفهارس العامة.

ورغم أن الكتاب ليس فهرسا –كما ذكرت - إلا أنه يقدم للقارئ والباحث مواد لا تقدمها الفهارس والقوائم الموجودة في بعض مكتباتنا، لأنه توسع في عرض محتويات المخطوطات، والكتب المطبوعة، من حيث موضوعاتها، وأبوابها، وفصولها ؛ مشفوعة بالتحليل والمناقشة والنقد الهادف.

ولأهمية الموسوعة وتميزها أحببت أن أعرض للقارئ الكريم في الفقرات التالية ملخصا وجيزا لمحتويات الأجزاء التسعة، لافتا انتباه الباحثين من الأساتذة والطلبة إلى هذه الموسوعة التي تشكل حصيلة الثقافة الوطنية - وهي بحاجة إلى تجلية مؤثراتها ومضامينها ونوازعها وخصائصها، وكيف تطورت عبر الأعصر المختلفة حتى تشكلت في صورته المتميزة- وذلك عبر دراسات علمية أكاديمية، تمكن الأجيال اللاحقة من الاعتزاز بموروثهم وبما أنتجه علماؤنا في حقول المعرفة، وإطلاعهم على مساهماتهم في بناء الحضارة الإنسانية.

وفيما يلي عرض توصيفي لأجزاء الكتاب مشفوعا بدعوة موجهة لزملائي الأساتذة وأبنائي الطلبة للالتفات نحو هذا الكنز الثقافي المتميز، بغية الاستفادة منه، وتفعيل عناصر ثقافتنا الوطنية التي حدد معالمها الدكتور أبو القاسم سعد الله،ولتبقى محافظة على سماتها المتفردة التي انطبعت بها على مر الأعصر، وذلك من خلال الدراسات البحثية التي تقيمها المؤسسات الجامعية ومركز البحث العلمي على المستوى الوطني :

الجزء الأول"1500/1830م": ويقع في (533) صفحة، تصدره إهداء وشكر وعرفان، ثم مقدمات الطبعات الأولى والثانية والثالثة، ولما كان حديثه في هذا الجزء والذي يليه عن العهد العثماني في الجزائر، فقد تكلم عن مصادر هذه الفترة وكيفية الاستفادة منها، وهي قليلة أو أنها من كتابة المؤرخين الفرنسيين، وهي لا تعكس بجلاء هذا العهد وما امتاز به من خصوصيات.

وأما مادة الجزء فوزعها على ستة فصول، عرض في الأول منها تراث القرن التاسع الهجري (15م)، مُبرزا المؤثرات الثقافية في المجتمع، والعلاقة بين العلماء والأمراء، وتناول النشاط الأدبي واللغوي، والتصوف وعلم الكلام من خلال أبرز الشخصيات الفكرية التي كان لها تأثير في الحياة العامة،كالنقاوسي، والثعالبي، وابن زكري، والجزائري، والسنوسي، والحوضي، والتازي، والفراوسني، والبسكري، والقسنطيني، وأبوعصيدة .

ثم تحدث عن العلوم والمنطق، والقراءات والتفسير والفقه، وخصص صفحات للونشريسي وأثره في الجانب الفقهي والاجتماعي، وذلك بتقديم مضامين كتابه (المعيار)، وأعقبه بحديث عن كتاب في النوازل (الافتتاح) للقسنطيني .وقد خلص إلى حقيقة مفادها أن القرن التاسع " شهد تحولات سياسية كبيرة وإنتاج ثقافي غزير"، وهو ما جعله يُعنى بالجانب الثقافي والعقائدي في بعض الفصول اللاحقة.

وفي الفصل الثاني تناول التيارات والمؤثرات من واقع العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين، والطبقات الاجتماعية، وطبيعة المدن الجزائرية،كما تحدث عن الحياة الدينية والأدبية والفنية وأثر ذلك على الجانب الوطني والثورات التي أقيمت ضد العثمانيين، والإحساس المشترك، وقد تتبع المؤلف هذه العناصر الفاعلة في المجتمع مبينا الأسباب والنتائج وأثر ذلك على الحياة عامة، مُصححا بعض الأفكار التي راجت حول الوجود التركي في الجزائر؛ من حيث السلبيات والإيجابيات فبين أن ما شاع حول هذه الفترة أمر بحاجة إلى وقفة متأنية نزيهة، ولا ينبغي الركون إلى ما تقوله المصادر الفرنسية وحدها.

ولبيان طبيعة الحياة الفكرية والثقافية يأتي الفصل الثالث الذي تناول المؤسسات الثقافية،التي تظهر في الأوقاف، والمساجد، والزوايا والرباطات، والمدارس والمعاهد العليا، ثم المكتبات على اختلاف أنواعها، وحديثه عن هذه المؤسسات شمل مختلف مناطق الجزائر .

أمـا الفصـل الرابـع فعقـده للتعليـم ورجالـه، تحـدث فيـه عـن سياسـة التعليـم في هـذه الفترة، والوسائل، والمناهج، والبرامج، وأنواع المعلمين ورواتبهم، والتلاميذ، وذلك في مختلف مراحل التعليم، كما تحدث عن تعليم المرأة، وكبار المدرسين، أمثال سعيد قدورة، وعلي الأنصاري، وسعيد المقري، وعمر الوزان .

ثم يأتي الفصل الخامس المخصص للعلماء، وفيه عرض واف لمكانتهم ووظائفهم وما يتميزون به، وتنافسهم وأخلاقهم، وعلاقتهم بالحكام، والظروف التي دفعت بعضهم إلى الهجرة خارج الوطن نحو الأقطار العربية والإسلامية، لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وعلمية.

وأخيرا يأتي الفصل السادس الذي أفرده للمرابطين والطرق الصوفية، إذْ تحدث عن حركة التصوف في العهد العثماني مُنبها على أنها ليست جديدة، بل هي امتداد لما كان سائدا في مختلف أنحاء البلاد العربية والإسلامية ومنها الجزائر، ثم أن الأتراك أنفسهم كانوا من أتباع الطرق الصوفية التي احتموا بها، وخاصة الطريقة البكداشية، وأكد أن جل الطرق التي ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي كانت على صلة بالطريقة الشاذلية، ثم بين علاقة المرابطين بالعثمانيين ودور أحمد بن يوسف الملياني في تقوية هذه العلاقة، لكونه من أعلام الشاذلية البارزين أثّر في استقطاب الناس حوله، وتعرض للمواقف المختلفة المتجاذبة حول علاقة العثمانيين بأصحاب الطرق الصوفية وغيرهم من العلماء والمفكرين، إذْ تتبع الحركة الصوفية وسلوكات رجالاتها من خلال جمع من أعلام الفكر الصوفي في الجزائر وآثارهم، كما عرض لأهم الطرق الصوفية، ومن أهم الأعلام الذين انصب حديثه عنهم أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الملياني، الخروبي، الأخضري، بوزيان والزيانية، الأزهري والرحمانية، التجاني والتجانية، الغريسي والقادرية، وختم الفصل بموقف عبد الكريم الفكون من المتصوفة ونقده لهم، لأن المرابطين جانبوا الصواب حينما ابتعدوا عن الصوفية الحقيقية وغالوا في بناء الزوايا وادعاء الكرامات واستغلال الناس .

وأنبه القارئ الكريم أن المؤلف أورد عددا كبيرا من الكتب المخطوطة والمطبوعة في هذا الجزء وفي الأجزاء الأخرى، كانت معينه الذي استقى منها المادة العلمية، وقد صرفت النظر عن ذكرها حتى لا يطول العرض.

الجـزء الثـاني"1500/1830م": ويقـع في (456) صـفحة، وهـذا الجـزء امتـداد للجـزء الثاني، لأن المؤلف استكمل فيه النشاطات العلمية والفكرية في العهد العثماني، وقد توزعت مادته العلمية على ستة فصول أيضا، تناولت الموضوعات التالية:

الفصل الأول: وخصصه للعلوم الشرعية، مهّد له بحديث عن التقليد والتجديد، بيّن فيه أن الإنتاج العلمي في هذا الحقل المعرفي مكرور لا جديد فيه، ثم استعرض ما تفرع عن

هذا الحقل من علوم، كالتفسير، والقراءات، والحديث، والأثبات، والإجازات، والفقه وأهم الآثار الفقهية، مع العناية ببعض أعلام هذه العلوم ونتاجهم المخطوط والمطبوع، وممن اعتنى بهم كثيرا : أحمد البوني، وعبد العزيز الثميني، وخليفة بن حسن القماري، وختم الفصل بالحديث عن النوازل والفتاوى والفرائض . وقد خلص إلى أن النتاج الفكري لهؤلاء العلماء يشكل معلما بارزا في الدراسات الشرعية لو أتيح جمعه والكشف عنه .

أما الفصل الثاني فعقده لعلم الكلام والتصوف والمنطق، تناول فيه علم الكلام وبعض رجالاته، كيحي الشاوي الذي فصل القول عن حياته ورحلاته وآثاره الفكرية، ثم التصوف والمناقب الصوفية وبعض الشروح في التصوف، والمواعظ والردود، والمنطق، وتحدث عن كثير من الأعلام ممن كتب في هذه العلوم، مُستعرضا آراءهم من خلال مؤلفاتهم .

ثم يأتي الفصل الثالث الذي تحدث فيه عن علوم اللغة، والنثر الفني، موضحا أن الجزائريين لم يؤلفوا في علم اللغة كما ألفوا في علم النحو، إذ نجد من الأعلام البارزين ابن معط، ويحي الشاوي، وعبد الكريم الفكون، وعاشور القسنطيني، وابن راشد، والتواتي، وسعيد قدورة، ومحمد الأخضري البسكري، وأبو القاسم البجائي، ومحمد الزجاجي، والبوني.

وفي البيان والمعاني والبديع والعروض توقف عند طائفة من الأعلام، يأتي في طليعتهم عبد الرحمن الأخضري، أما الفنون النثرية المتمثلة في المقامات، والرسائل الديوانية، والإخوانية والوصف، والتقريظ، والتعازي، والشروح الأدبية، والقصص، والخطب والإجازات، فخلص إلى أن الضعف الذي ساد العهد العثماني بسبب ضعف الحكام، ومنافسة اللهجات، وانتشار الجهل، وغير ذلك من الأسباب كان عاملا في ضعف هذه الفنون، ومع ذلك نبغ أعلام أمثال أبي رأس الناصر صاحب الشروح الكثيرة، وسعيد المنداسي، والبوني، وأحمد المقري، وأحمد بن عمار .

وفي **الفصل الرابع** تناول الشعر وموضوعاته، وبعض أعلامه، فقد تحدث عن الشعر الديني والسياسي والاجتماعي، وموضوعات المجون، والمزاح، والمديح، والفخر، والرثاء، والمنشآت العمرانية، والألغاز ثم الشعر الذاتي، والوصف والحنين والشكوى، ثم الشعر الشعبي .

وفي الفصل الخامس جاء حديثه عن التاريخ، والتراجم، والرحلات، إذْ تحدث فيه عن مفهوم التاريخ، والسيرة النبوية، وذكر أحداثا تاريخية عامة وخاصة، ثم مجموعة من التراجم العامة والخاصة، وتوقف عند ابن المفتي وتقييده، وأبي رأس الناصر، وفي الرحلات كان الكلام عن الورتلاني ورحلته .

أما الفصل السادس فتكلم فيه عن العلوم والفنون، مهد له بمقدمة، تكلم عن الحساب والفلك، والطب والجراحة والصيدلة، وتوقف عند عبد الرزاق ابن حمادوش وآثاره،

مع العناية بكشف الموز، وتعديل المزاج، ثم تناول الفنون، كالموسيقى، والغناء، ورأي العلماء والمتصوفة فيها، ومن الفنون التي تعرض لها أيضا فن العمارة، والخط، والرسم .

لقد جاء حديث المؤلف في الجزئين السابقين عن العهد العثماني وما شهده من نشاطات ثقافية وفكرية وتعليمية واجتماعية غنيا ومتنوعا، أبرز من خلاله جوانب كانت خفية، وصحح مقولات جانب أصحابها الموضوعية، ولاسيما تلك التي جاءت في الكتابات الفرنسية، وقد خلص إلى أن العهد العثماني في الجزائر كانت له نظارة في جوانب كثيرة وليس كما يدعي بعض الحانقين .

الجزء الثالث"1830/1954م": يقع في (456) صفحة، وقبل الحديث عن محتوى هذا الجزء أنبه إلى أن الأجزاء الآتية كلها تتناول المرحلة التي احتلت فيها فرنسا الجزائر، أي : من 1830إلى 1954م .

تناول المؤلف في هذه الأجزاء الجوانب المختلفة للحياة الثقافية ومظاهرها؛ " من تعليم وتصوف ورجال دين وقضاء ونخبة، ومعالم وأوقاف، ومنشآت...واستشراق وتبشير، وترجمة، ومترجمين، وتيارات ومذاهب، وأنشطة المهاجرين، إضافة إلى دراسة الإنتاج الثقافي نفسه في العلوم الدينية، والاجتماعية، والتجريبية، وفي الآداب والفنون والتاريخ .

وقد نص المؤلف على أن مصادره ومراجعه لهذه المرحلة غنية ومتنوعة بحسب تنوع مواد الكتاب، وليس بالإمكان تحديد ما أمكن قراءته ومدارسته لتغطية هذه الفترة الزمنية، وإذا كان الزمان محددا فإن الحيز المكاني في الكتاب أوسع وأشمل مما كان عليه في العهد العثماني، لقد امتد النشاط الفكري في الكتاب إلى ما قام به الفرنسيون من المترجمين والمستشرقين والمؤرخين والفنانين من نتاج حول التراث الجزائري الذي يخدم مصالحهم الشخصية، وبين أن الفرق بين العثمانيين والفرنسيين في هذا المجال يظهر في أن العثمانيين لم يتدخلوا في كتابة أوجه الثقافة الجزائرية كما فعل الفرنسيون الذين عملوا على إبعاد كل الجزائريين؛ من علماء ومفكرين وأدباء، والسيطرة على التعليم والدين .كما امتد أيضا الكتاب إلى تغطية أعمال ونشاطات المهاجرين الجزائريين في المشرق والمغرب والبلاد الإسلامية، وأكد أن الكتاب لا يُفهم على أنه ترجمة للأعلام بقدر ما هو دراسة وتشريح لواقع الثقافة الجزائرية من خلال الأعلام الذين توقف عند إنتاجهم، لأنه توقف فيه عند كل الروافد التي ساهمت في تشكيل الثقافة الجزائرية في مجالاتها المختلفة بما في ذلك الموروث الشعبي المكتوب والشفهي وبلهجاته المتنوعة تنوع المناطق الجزائرية .

وألمح المؤلف إلى قضية طالما أشار إليها في كتبه المختلفة وفي مناسبات القول، وهي عزوف الجزائريين عن الكتابة وتدوين تاريخه حياتهم بكل ما فيها، وذلك في كل الحقب

الزمنية المتعاقبة، وهذا العزوف أدى – في رأيه – إلى فسح المجال أمام المغرضين والحاقدين للنيل من الأمة الجزائرية والطعن في مفكريها وعلمائها، بل الأمر أفضى إلى حقيقة أصبحت مقلقة، وهي خلق حساسية مفرطة من النقد بين أبناء الجزائر.

وفي هذه التقدمة يذكر المؤلف بمرارة معاناته في إنجاز هذه المادة التي غطت الفترة الاستعمارية، كضياع محفظته وفقد أوراقه وجذاذاته ومصادره ومراجعه ومصوراته، وكل ما يتعلق بيومياته مما دونه عن رحلاته ومشاهداته وانطباعاته في السنوات (1984/1988م).

فالجزء الثالث وقع في ثلاثة فصول، تحدث في الأول عن التعليم والمدارس القرآنية والمساجد، درس فيه وضع التعليم الإسلامي غداة الاحتلال، كالتعليم في المدارس القرآنية، والتعليم في المساجد، وتوقف عند بعض أعلام التدريس في المناطق المختلفة من الوطن، فذكر من العاصمة: القديري، والأرناؤوط، وبوقندورة، وابن الحفاف، وابن سماية، وتوقف في الوسط عند أبرز المدن، وأشهر المدرسين فيها، كمدن: شرشال، والبليدة، وتيزي وزو، كما توقف عند مدرسي المساجد في وهران، وتلمسان، ومعسكر، ومستغانم، وندرومة. وكذلك في إقليم قسنطينة توقف عند الونيسي، وبوجمعة، وابن مرزوق، وغيرهم ممن درسوا في كل من: سطيف، وعنابة، وبجاية، وبسكرة، والمسيلة، وقالمة، وتبسة.

واستعرض في نهاية الفصل وضع المدرسين، والمرتبات، والتلاميذ، والبرامج، والمراقبة الشديدة التي كانت تفرضها فرنسا على أنواع التعليم المختلفة.

أما الفصل الثاني فعقده للتعليم في الزوايا والمدارس الحرة، والتعليم في الزوايا ركز فيه على ناحيتين، هما: الزوايا في منطقة زواوة، ومنطقة الجنوب، والزوايا في المنطقتين متنوعة، لها أنظمتها ومناهجها واختصاصاتها ورجالاتها، فمن زوايا زواوة: زاوية شلاطة بآقبو، وزاوية تيزي راشد، وزاوية اليلولي، وغيرها، ومن زوايا الجنوب: طولقة، والخنقة، والهامل، والتجانية، وقصر البخاري، وزوايا أخرى.

وتناول أيضا الحديث عن المدارس الحرة، ودورها في نشر العلم والفكر وتوعية الناس، وهي موجودة في المدن والأرياف، وهذه المدارس مكملة للمدارس النظامية التي كانت تحت مراقبة المحتل، حاول أصحابها إخراج الناس من الجهل الذي فرضه المستعمر الفرنسي، وهي مدارس ظهرت في أنحاء مختلفة، نشط فيها خيرة العلماء والمدرسين، وفي الجنوب بمنطقة غرداية ظهر معهد بني يزقن الذي أدى دورا بارزا في نشر العلم والوعي بفضل الشيخ أطفيش، هذا المعهد أمه طلبة من الجزائر ومن خارج الجزائر، كما أنشئ معهد الحياة في المنطقة، غطى النشاط التعليمي بجملة من النشاطات الثقافية والفكرية والاجتماعية، وأعلامه معروفون في الوسط العلمي داخل الجزائر وخارجها.

إن حـديث المؤلـف عـن الزوايـا ومناهجهـا رافقـه نقـد موضـوعي للجوانـب المختلفـة، ولاسيما ما يتعلق بالمناهج والطرق المتبعة وطبيعة المواد المدرسة .

وخصص المؤلف الفصل الثالث للتعليم الفرنسـي والمزدوج، تنـاول فيـه المواقف المختلفة حول تعليم الجزائـريين، والتعليم الفرنسـي، والتعليم المزدوج، والتعليم في المدارس الابتدائيـة المزدوجـة، والتعلـيم في المـدارس المتوسـطة الثلاثـة في الجزائـر، والتعلـيم في المعاهـد (الكـوليجـات)، ومدرسـة ترشـيح المعلمـين (النورمـال)، ثـم تحـدث عـن البـرامج، والميزانيـة، والتعليم المهني، وتعليم المرأة والفنون التقليدية .

إن التعليم الفرنسـي في الجزائـر لـه نظـام ومنـاهج وأهـداف وغايـات يختلـف عـن التعليم العربـي الإسـلامي، ولـذلك كـان محـل تحليـل ودرس مـن المؤلـف، وهـو يعكـس بجـلاء الأثـر الفكـري الذي تركـه المحتل في المجتمع الجزائري، وبقي إلى يوم النـاس هذا .

الجزء الرابع"1830/1954م" : ويقع في (544)صفحة، ومادته موزعة على ثلاثة فصـول أيضـا، تنـاول في الأول والثـاني الطـرق الصـوفية، مـن حيـث أصـولها وفروعهـا، ومبادئهـا، ومصـطلحاتها، وتطورها السياسي والاجتماعي والمعنوي، ومواردها، وعلاقتها بمريديها وأتباعها.

تحدث في مدخل عام حول تحرير المصطلحات المتعلقة بـالطرق الصـوفية، ثـم ذكـر أن عـدد الطـرق الصـوفية الموجـودة في الجزائـر بلغـت سـتا وعشـرين طريقـة كـانـت منـذ العهـد العثماني، باستثناء أربع منها أنشئت في العهـد الاسـتعماري، كـالسنوسـية، والعليويـة . وتوقـف عنـد موقـف الطـرق الصـوفية مـن المحتـل ومشـاركتها في المقاومـة المسلحة، ثـم عـرض الطـرق الصوفية، مُعرِّفا بها وبأعلامها وبأهدافها ونشاطاتها، كمـا ذكـرنا.

وفي آخر الفصل الثاني تناول طرق تمويل الزوايا والطرق الصوفية، وقدم إحصـاء عدديا لها، ثم بين مشاركتها في الحياة السياسية، وتوظيـف هـذه الطـرق وتـدجينها، لأن فرنسـا رأت فيها خطرا عليها، ولذلك عملت على استعمالها وسيلة لخدمة أغراضها .

أمـا الفصـل الثالـث فقـد خصصـه للسـلك الـديني والقضـائي، عـرَّف الهيئـة الدينيـة ونشـاطها، ورجـل الـدين والسياسـة، وتصـنيف المسـاجد وموظفيهـا ودورهـا، وشـؤون الحـج، والإجحاف الذي وقع من فرنسا في حق الدين ورجالـه، ثـم تكلـم عـن القضـاء ومحاولـة فرنسـا التـدخل في القضـاء الإسـلامي، ونظـام المجـالس القضـائية ومراسـيمها، ومحاولـة التجـنس، والزواج المختلط، والهجوم على القضاة، وتحدث عن جملة من أعلام القضـاء، ثـم تنـاول قضـية تدوين الفقه الإسـلامي .

الجزء الخامس"1830/1954م": يقع في (624) صفحة، ويشتمل على أربعة فصول، تناول في الأول المعالم الإسلامية والأوقاف، وفيه مسح شامل وتحليل لواقع المساجد والزوايا والأوقاف في ظل السيطرة الاستعمارية، وكذلك الأوقاف في المدينة ومكة، والجمعيات، والبناءات والطرق، وبين في مقدمة الفصل مصادره التي أفاد منها، وقد وزع مادة الفصل حسب الأقاليم الإدارية للجزائر (العاصمة، وهران، قسنطينة)، ففي العاصمة كان عدد المساجد عند الاحتلال الفرنسي (122) مسجدا بين صغير وكبير، كثير منها يرجع إلى العهد العثماني، أصابها التخريب والهدم، ومن أشهرها في العاصمة جوامع: السيدة، محمد باشا، سيدي السعدي، المصلى، ابن نيقرو، علي بتشين، عمار التنسي، العين الحمراء، الجامع الكبير، سيدي عبد الرحمن الثعالبي، الجامع الجديد، كتشاوة، الداي حسين، وغير ذلك كثير مما تعرض له المؤلف.

إن هذه المساجد تعرضت لسطوة المستعمر الفرنسي، فخُربت وهُدمت، وحُول بعضها إلى كنائس كاثوليكية، وإلى مؤسسات تخدم أغراضه الاستعمارية، ففقدت وظيفتها الدينية، وهذا الحال هو ما آلت إليه المساجد القريبة من العاصمة، كما في المدية وشرشال، والبليدة، ومليانة، وزواوة، ورغم هذا الخناق الذي فرضته فرنسا على المساجد فإن المواطنين كانوا يبنون مساجد هنا وهنا ك، ولاسيما بعد ظهور الحركة الإصلاحية في بداية القرن العشرين.

أما مساجد قسنطينة فقد بلغت زهاء مائة مسجد عقب الاحتلال الفرنسي، ويشمل الإقليم عامة (873) مسجدا، ومنها على سبيل المثال جوامع: رحبة الصوف، القصبة، الجامع الكبير، صالح باي، سوق الغزل، الجامع الأخضر، سيدي علي بن مخلوف، سيدي الشاذلي.

وقد ذكر المؤلف أن المعالم الإسلامية في قسنطينة بعد 1848م شهدت مجزرة كبرى من الفرنسيين عندما أحسوا بنشوة الانتصار والسيطرة على الجزائريين، ولم تكن مساجد بجاية بمنأى عن هذا التخريب والدمار الذي شهدته قسنطينة، فالدمار الذي لحق بالطرق والمباني والمؤسسات أدى تلقائيا إلى هدم المساجد، والاستيلاء على أوقافها، وهذا الوضع المأساوي شهدته مساجد عنابة، أما بسكرة فصودرت أوقاف مساجدها، وشمل الحديث أيضا مساجد بني يزقن وورقلة ووادي سوف.

أما إقليم وهران في الغرب الجزائري الذي يضم (151) مسجدا فكان نصيبها من التهديم والتخريب أقل مما كان عليه في العصمة وقسنطينة، لكن الإهمال والحرمان وإفقار العلماء كانت سمات تطبع هذه المساجد، ومن مساجد وهران مسجد سيدي الهواري، أما معسكر عاصمة الأمير عبد القادر فقد تعرضت مبانيها عامة للنيران والهدم، وفي العين البيضاء كان مسجدها الجميل محل إعجاب الأوربيين، إذ اتخذوه مزارا سياحيا، لكن

المستعمر الفرنسي حوله إلى مخزن للحبوب، كما تحدث المؤلف عن مساجد مازونة، وندرومة، ومليانة، وتلمسان المشهورة بمساجدها، وخاصة الجامع الكبير الذي بناه علي بن يوسف بن تاشفين سنة (530هـ) .

وقد تعرضت جميع مساجد المنطقة إلى الحرمان من أوقافها من قبل السلطة الفرنسية، وذلك لتحد من أثرها في توعية الناس والحفاظ على دينهم .

وامتد الحديث إلى الزوايا المنتشرة في الأقاليم الثلاثة، وما يتبعها من أضرحة وأقبية، باعتبارها من المراكز التعليمية، إذْ لا تقل أهمية عن المساجد، ولذلك أصابها من المستعمر ما أصاب المساجد من هدم وتخريب وإغلاق وحرمان، وتحويل، واغتصاب لأوقافها، وللمؤلف وقفات مع هذه المؤسسات وأوضاعها المختلفة وموقف المستعمر منها .

كما توقف عند القرارات الفرنسية القاضية بمصادرة الأملاك الدينية وجعلها تحت تصرف الدولة الفرنسية، بما في ذلك أوقاف مكة والمدينة والمساجد، ومنها قانون (كلوزيل) في سبتمبر1830م، وما تلاه من قرارات أخرى . وتحدث أيضا عن أصناف الأوقاف، والمساعدات الخيرية، والمكتب الخيري الإسلامي، وجمعيات الإغاثة الاحتياطية .

وفي الفصل الثاني والثالث تناول المنشآت والمراكز الثقافية، وهي ممثلة في الصحافة، والمطابع، والمكتبات، والمتاحف، والمسارح، والجمعيات، والنوادي. وهذه المؤسسات تأسست جميعها في عهد الاحتلال لتخدم مصالحه، وأشار المؤلف إلى أن الجزائريين أيضا ساهموا في إنشاء مثيلات لها، وقد توقف عندها المؤلف وبين دورها في الحراك الثقافي، وموقف السلطة الفرنسية منها .

وسوف أتوقف قليلا عند المكتبات، لأنها ميدان لأوعية العلم المختلفة ؛ من مطبوع ومخطوط، إذْ المستعمر منذ حلوله في الجزائر جنَّد ضباطه للاستحواذ على المخطوطات الموجودة في المكتبات العامة والخماصة، فالمساجد والزوايا التي سبق الحديث عنها كانت ملأى بأوعية العلم، ولاسيما المخطوطات، لأنها تمثل دور العلم الرئيسة في أنحاء الوطن، ولذلك فإن المستعمر عمل على مصادرة تلك الأوعية أو حرقها، فأسماء (باصيه وفانيان، وبير بروجيه، وغيرهم من الضباط) عملوا على مرافقة الحملات الفرنسية في أنحاء من الجزائر، فجمعوا كل ما وقع بين أيديهم من مخطوطات وهربوها إلى فرنسا وإلى غيرها من المكتبات الأوروبية، وترجموا الكثير منها إلى لغاتهم على أنها من تآليفهم، وبذلك تنكروا للتراث العربي والإسلامي، وعملوا على فصله عن أهله، وقد تعرضت المكتبات العامة والخاصة إلى النهب والحرق، أضف إلى ذلك خوف الناس على ما يمتلكونه من مخطوطات أدى بهم إلى دفنها تحت الأتربة، وبمرور الزمن تعرضت لعاديات الزمن فأُتلفت، ولكن عامل الاستعمار

كان أكثر العوامل المؤثرة سلبا في تراثنا المخطوط، فالمستعمر الفرنسي ألحق ضررا كبيرا بالأرشيف الجزائري، نهبا، وحرقا، وتزويرا .

وقد قسم المؤلف المكتبات إلى مكتبات فرنسية عمومية، كالمكتبة الوطنية، والمكتبة الجامعية، والمكتبات البلدية، ومكتبات فرنسية خاصة، كما تحدث عن المكتبات الجزائرية العامة والخاصة، فالعامة قصد بها ما وُجد في الزوايا، أما الخاصة فهي التي كونها الأفراد والعائلات في أثناء الاحتلال .

ومن المكتبات التي توقف عندها المؤلف المكتبة الوطنية التي أسسها الفرنسيون عام 1835م، وقد عرض محتوياتها من المخطوطات في مختلف حقول المعرفة والفنون، والأطوار التي مرت بها في نموها، أما المكتبة الجامعية فأنشئت عام 1880م، لتلبية حاجة الطلبة والباحثين، وتعرضت عام 1962م إلى حرق من قبل المنظمة الإرهابية السرية التي تعارض استقلال الجزائر، كما تحدث عن المكتبات العسكرية والبلدية التي أنشأها المستعمر في القطاعات العسكرية، كمكتبات : بلدية العاصمة، وبلدية قسنطينة، وبلدية تلمسان، وبلدية عنابة، وغير ذلك من المكتبات المدرسية، والمتوسطات، والليسيات (الثانويات).

وتوقف أيضا عند مكتبات الزوايا في الأرياف، ومنها مكتبة ابن أبي داود وما تحتفظ به من مخطوطات، وأشار إلى أنها تعرضت للتلف والنهب في أثناء الثورة التحريرية إثر معركة جرت سنة 1958م، ومنها مكتبة آل سحنون، ومكتبة سيدي خليفة، ومكتبة زاوية طولقة، ومكتبة زاوية الهامل، ومكتبة أولاد سيدي الشيخ، ومكتبات أدرار، ومكتبة الزاوية العبدلية، وغير ذلك من مكتبات الزوايا المنتشرة في ربوع الوطن.

أما المكتبات الخاصة فهي التي كونها الأفراد عن طريق الوراثة أو الشراء أو طرق أخرى، وأغلبها ريفية، ومنها : مكتبات وادي ميزاب، وكثير منها معروفة بأسماء شيوخ المنطقة، ومكتبة عائلة الفكون، ومكتبة الأمير عبد القادر، ومكتبة الشيخ طاهر الجزائري، ومكتبة المولود الحافظي، ومكتبة ابن سماية .

وتحدث المؤلف أيضا عن حركة الاستنساخ والنساخين، والمتاحف الوطنية، والمسرح، والموسيقى .

وفي الفصل الرابع تحدث عن الجزائر في المغارب والمشارق، واستعرض فيه حركة هجرة الجزائريين ؛ شرقا وغربا، وأثر هذه الهجرة في الحركة الفكرية والثقافية، وقد بين أسباب الهجرة، ولاسيما بعد حلول المستعمر الفرنسي في البلاد ومصادرة الأملاك الوقفية ومحاصرة المؤسسات الدينية والتعليمية وتخريبها والحد من وظائفها، فالهجرة كانت نحو المغرب، وتونس، وليبيا، ومصر، والحجاز (مكة والمدينة)، وإسطانبول، قام بها العلماء

والطلبة، وذكر نشاط هؤلاء في مناحي الحياة الفكرية والعلمية المختلفة، وذلك من خلال توقفه عند شخصيات لامعة، وخاصة الأمير عبد القادر وعائلته في المشرق.

كما توقف عند الزيارات التي قام بها علماء من المشرق والغرب إلى الجزائر وأثرها في تنمية الوعي لدى المواطن الجزائري، كزيارة الشيخ محمد عبده، وما قام به من مراسلات مع نظرائه الجزائريين، وفي آخر الفصل توقف عند بعض الجمعيات والجرائد التي كانت تواكب التطورات والأحداث السياسية والثقافية .

الجزء السادس "1830/1954م" : يقع في (460) صفحة، توزعت مادته على ثلاثة فصول، خصص **الأول** منها للاستشراق والهيئات العلمية والتنصير باعتباره وجها من أوجه الغزو الثقافي الفرنسي للجزائر، تتبع مراحل نشأته، وصلته بالإدارة الاستعمارية، والمدارس والدراسات الإسلامية، والكنيسة ورجالها، والجمعيات العلمية التي أنشأها الفرنسيون على اختلاف أهدافها، وكذا البعثات العلمية، والنشاط التنصيري . وقد فصل المؤلف القول في هذه القضايا، مُبينا أثرها السلبي على أبناء المجتمع والحياة الفكرية والثقافية عامة.

أما **الفصل الثاني** فعقده للترجمة، وبين أثرها الفعال في الحياة الثقافية، لأنها كانت من العربية إلى الفرنسية ومن الفرنسية إلى العربية، وقد تطلبتها ضرورات الحياة التي أملاها الوجود الاستعماري، وأوضح أنها شملت قطاعات القضاء والجيش، والإدارة، والصحافة، والآداب، والعلوم الأخرى. وخصص جانبا من هذا الفصل للحركة الاندماجية في المجتمع الجزائري التي أوجدتها فرنسا بحكم فرض ثقافتها، والادعاء أن الجزائريين بحاجة إلى من ينقلهم من بداوتهم إلى حضارة راقية، وقد بين الجوانب المختلفة للظاهرة والوسائل التي عمدت إليها فرنسا لتحقيق غاياتها، كتنظيم زيارات ورحلات لكثير من الجزائريين إلى فرنسا، واستقطاب الأطفال للتأثير فيهم، والدعوة إلى استعمال الفرنسية في التعليم في أطواره المختلفة، وتوقف عند بعض أعلام الاندماجية ورؤاهم الفكرية والسياسية، ومنهم : ابن رحال، وابن العربي، وبوضربة، ومرسلي، وابن حمودة، وابن قلفاط، والزناتي، وغيرهم .

ويأتي **الفصل الثالث** الذي توقف فيه المؤلف عند بعض المذاهب والتيارات الفكرية والسياسية التي تعكس أثر الاحتلال في ثقافة المجتمع الجزائري، وقد تساءل المؤلف : هل كان الاحتلال نعمة أو نقمة ؟ فقدم أفكارا وآراء كثيرة قيلت بشأن الاحتلال وأثره على مناحي الحياة المختلفة ؛ الثقافية، والفكرية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، من خلال الرؤى والتصورات التي قدمها قادة فرنسا ومفكروها حول احتلالهم الجزائر، كما هو الحال عند كل من : (باصيه، ووارنيه، وطوكفيل، ولافيجري، ولويس فينون، وغيرهم)، وحلل بعض الأطروحات والوسائل التي كانوا يلجؤون إليها لتحقيق مآربهم، كاللجوء إلى

سياسة " فرق تسد"، و" معاداة العرب"، و" معاداة البربر"، و" التآمر على زواوة"، و" الدعوة إلى تعلم اللغة الفرنسية واستعمالها بديلا للعربية " .

كما تحدث عن وضع المرأة، والهجرة، والاندماج، والتجنس، والجزائر في الكتابات الفرنسية، واليهودية، والصهيونية في الجزائر، والماسونية، والإسلام ووحدة الأديان، والسانسيمونية المثالية(نسبة إلى سان سيمون) والاشتراكية الشيوعية .

الجزء السابع"1830/1954م": يقع في (480) صفحة، جاءت مادته في أربعة فصول، تناول في **الأول** العلوم الدينية، وذكر أن التأليف في هذا الحقل المعرفي لم يكن بالقدر الذي كان عليه في البلدان العربية الأخرى التي توجد فيها مؤسسات تعليمية تقليدية راقية، كالأزهر، والزيتونة، والقرويين، وبين أن مجالات التأليف في العلوم الدينية شملت التفسير والقراءات القرآنية، والحديث النبوي الشريف، والأثبات والإجازات، والفقه والأصول، والقضاء، والردود والاعتراضات، وقد توقف عند بعض أعلام هذا الحقل، أمثال : الأمير عبد القادر، والعربي التبسي، وأحمد سحنون، والشيخ محمد بن يوسف أطفيش، وابن باديس، والشيخ علي البوديلمي، ومالك بن نبي، والبوجليلي، وعبد الله سقاط، والتواتي البجائي، ومحمد بن علي السنوسي، ومصطفى الحرار، والقاضي شعيب، والمولود الزريبي، وعبد الحليم بن سماية، والمكي ابن عزوز. وهؤلاء الأعلام وغيرهم ممن نشط في الحقل الديني ذكر لهم المؤلف جملة من التآليف ؛ المخطوطة والمطبوعة، تعكس جهودهم المتميزة في التعليم والتأليف والثقافة إبان المرحلة الاستعمارية .

أما **الفصل الثاني** فدرس فيه العلوم الاجتماعية، كالتصوف والطرق الصوفية، وعلم الكلام، وغير ذلك مما كتب في الثقافة الإسلامية، والنظم السياسية، والإصلاح الاجتماعي والتربوي، والدفاع عن الإسلام، وقضايا المرأة والأسرة، والأخلاق، والتجارة، وختم الفصل بحديث عن مالك بن نبي الذي يعد ظاهرة متفردة في الفكر الجزائري المعاصر، ونظرته الخاصة للحضارة الإنسانية .

وتناول في **الفصل الثالث** العلوم التجريبية، كالطب، والتداوي بالأعشاب، والرياضيات، والفلك، ففي الطب تناول ما حققه الفرنسيون من نتائج ونقلوها إلى مستعمراتهم، ومنها الجزائر، كما تحدث عن الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب، وأولى اهتماما بالطب في الأوراس ونظرة الفرنسيين إلى تلك الجهود وأثرها، كما ألمع في حديثه إلى الطب السحري والخرافي، وأسباب ظهور هذا النوع من العلاج في الوسط الاجتماعي، وكان حديثه مشفوعا بالعرض والتوصيف لبعض الأعمال العلمية التي ظهرت من خلال عدد من المؤلفات والمقالات، مع تقديم ترجمات لبعض أعلام الطب في الجزائر، والمدرسة التي تخرج

فيها عدد من الأطباء والصيادلة . كما تحدث عن الفلك وأعلامه ومؤلفاتهم، وعن مدرسة الحساب ورجالها ومؤلفاتهم، ولم يغفل الحديث عن علوم الفيزياء، والكيمياء، والأحياء، والنبات، والجغرافيا، وطبقات الأرض .

أما **الفصل الرابع** فعقده للتاريخ والتراجم والرحلات، ففي التاريخ درس مفهومه وما تفرع عنه من تغييرات، ثم ذكر ما اهتم به الجزائريون في مؤلفاتهم من أحداث ووقائع داخل الجزائر وخارجه ؛ قديمة كانت أم حديثة، جهوية أم وطنية، وقسم التاريخ المحلي إلى غربي، وشرقي، وجنوبي . وقد كان للسيرة النبوية حضور في المؤلفات التاريخية الجزائرية، كما تحدث عن الأنساب، والتراجم، والرحلات، والمذكرات (السيرة الذاتية).

وهذه القضايا التاريخية التي اعتنى بها المؤلف كان يعرضها من خلال ما كتبه الجزائريون في مؤلفاتهم، وهي كثيرة في آثارهم المخطوطة والمطبوعة، وهذا ديدنه في كامل أجزاء الكتاب .

الجزء الثامن"1830/1954م" : يقع في (480) صفحة، تناول في هذا الجزء كل ما يتعلق بالآداب والفنون ؛ من نثر فني على اختلاف نصوصه وأغراضه، وعن الشعر وأغراضه وأعلامه، وعن الفنون التقليدية الشعبية، كالآثار، والمتاحف، والنقوش، والرسوم، والموسيقى، وجاء ت مادته في ثلاثة فصول، خصص الأول منها للغة والنثر، تحدث عن المقالة، والرسائل، والخطابة، والتقاريظ، والروايات، والمسرحيات، والقصص، والمقامات، وأدب العرائض والنصائح، وتتبع المؤلفات والشروح والتحقيقات التي أنتجها رجال هذه الفنون، وتوقف عند أبي شنب باعتباره من الشخصيات اللامعة في الدراسات العلمية ؛ تأليفا وتحقيقا، كما توقف عند غيره من الكتاب والأدباء ممن كتبوا أيضا بالفرنسية، كعبد القادر فكري، وجميلة دبيش، ومالك بن نبي، وسعد الدين بن شنب، ومصطفى الأشرف، ومحمد ديب، ومولود معمري .

أما الفصل الثاني فقد توقف فيه عند الشعر، تتبع الحركة الشعرية خلال مرحلة الاستعمار الفرنسي، فدرس الشعر الفصيح والشعبي، وبين الأغراض التي كتب فيها الشعراء، ووجد أن الشعراء الجزائريين لم يخرجوا عن الأغراض التقليدية المعروفة ؛ كالفخر، والهجاء، والوصف، وإن قل المديح والرثاء والغزل والتوسل، وتوقف عند الشعر الوطني والقومي والإسلامي، وهو منحى نتج عن الوضع الذي آل إليه المجتمع في ظل الاحتلال، وما أحدثته الحركة الإصلاحية فيما بعد من وعي لدى المواطنين .

وقد رجع المؤلف إلى الدواوين الشعرية والمجموعات ؛ المطبوعة والمخطوطة، كما رجع إلى المؤلفات الأخرى التي لها علاقة بالشعر والنقد والعروض، وكانت عنايته بالشعر

الفصيح والشعر الشعبي (الملحون) على حد سواء، توقف عند دواوين: الأمير عبد القادر، عاشور الخنقي، أبو اليقظان، المشرفي، المكي بن عزوز، الديسي، الطاهر بن عزوز، قدور بن عاشور، الطاهر العبيدي، الهادي السنوسي، محمد العيد آل خليفة، العقبي، ولأهمية كتاب الهادي السنوسي (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) خصه بفقرات تعرض فيها لمضمونه وأهميته في تطور الحركة الشعرية والنقدية في الجزائر.

كما تحدث عن الشعر الديني، والسياسي، والإسلامي والإصلاحي، والمديح، والرثاء، والإخواني، والذاتي، والتمثيلي، وخص حديثا مطولا للشاعر مبارك جلواح، مُشيرا إلى أنه أنتج شعرا غزيرا لكن حياته كانت مأساة .

وفي آخر الفصل يتوقف عند الشعر الشعبي والبربري، ليبن أغراضه ومضامنه، ويؤكد أنه كان مصاحبا للمقاومات والثورات الشعبية، فلكل مقاومة أو ثورة شعراؤها الذين سجلوا أحداثها، ومن الموضوعات والأغراض التي انطبع بها الشعر الشعبي أيضا المدائح النبوية والتوسلات، ومدح الفرسان والأبطال، والشكوى من الزمن، والظلم، والحرمان، والسياسة، ووصف الطبيعة، والحب، والحكمة، والمغامرة . كما أشار إلى أن دراسة الشعر الشعبي اهتمت به السلطة الفرنسية في الجزائر قبل الجزائريين، لأنه سجل حافل بالأقوال والمواقف المناهضة لفرنسا، كالدعوة إلى رفض التجنيس، ومقاومة المحتل، والدفاع عن الوطن، والدين، واللغة .

ومن أعلام الشعر الملحون البارزين ممن توقف عندهم : قدور بن خليفة، ومحمد البرجي، ومحمد بن قيطون صاحب قصيدة (حيزية)، ومحند أو محند، ومصطفى بن إبراهيم، ومحمد بن عمر، وأحمد بن دالة العامري، واسماعيل الزيكي، ومحمد بلخير، وبوزيان القلعي، ومسعود أحمد بن زملط، وعبد القادر المازوني، وسيدي محمد بن اسماعيل.

وفي الفصل الأخير من هذا الجزء - وهو آخر ما كتبه في الكتاب بأجزائه المختلفة - يؤرخ المؤلف للفنون، إذ اعتنى بما أنتجه الجزائريون في هذا الحقل الفني خلال الحقبة الاستعمارية، وأثر الجزائر على الفنانين الفرنسيين، وتأتي الفنون التقليدية الشعبية في المقام الأول على اختلاف أنواعها، كالفضة والذهب، والنحاس، والطرز، والخزف، والأسلحة، والنسيج، والزخرفة والديكور. لقد ازدهرت الحلي الجزائرية والزخرفة بأشكالها ورسوماتها، وذوقها الديني والمحلي، وخاصة في العاصمة وقسنطينة ووهران، وللزرابي نصيب أوفر في هذه الفنون، حيث أبدع فيها الجزائريون، وقل ذلك عن المصنوعات الخشبية المنحوتة، والفخار، وأمام التفرد الذي شهدته الصناعة التقليدية عمدت فرنسا - كعادتها - إلى شد الخناق عليها ومحاصرتها بسلعها، وأشار المؤلف إلى المدارس التي أنشئت للفنون والصناعات التقليدية، منها الجزائرية والفرنسية والإنجليزية في عدد من المدن الكبرى، وبرع الجزائريون

أيضا في فن التجليد والتسفير، وهو فن عُرف منذ العهد العثماني، لكن فرنسا كانت سببا في اختفائه، لأنه فن لصيق بالمساجد والزوايا والمخطوطات فحاربته .

وتوقف المؤلف عند أثر اللمسة الفنية المشرقية على الفنانين الفرنسيين، وبين إقبالهم الشديد على الجزائر، كما هو الحال عند :(دي لاكروا ، وثيوفيل غوتيه، وفيرنيه، والإسكندر دوماس، وشاصيرو)، وغيرهم كثيرون .

وعرَّف المؤلف أيضا بكثير من أعلام الفن الفرنسي والأعمال الفنية التي قاموا بها، وكذا المدارس التي أنشؤوها، كإنشائهم مدرسة الفنون الجميلة، وفتح فيلا عبد اللطيف التي غدت قبلة للفنانين الفرنسيين، وورشة لفن الرسم والنحت، والنقش، والتصوير، ولكن الفرنسيين قصروا نشاطها على بني جلدتهم، وأشار إلى افتتاح الفرنسيين معارض للفنون الإسلامية في باريس والجزائر، ومن أكبر معارض فرنسا في الجزائر المعرض الذي أقامته في حفل المائوية للاحتلال، كما أنشؤوا المتحف الإسلامي للفنون، مماثلا لمتحف الفن الإسلامي في القاهرة .

كما توقف أيضا عند الآثار الدينية، كالمساجد، والزوايا، والأضرحة، ومظاهر العمران، كالقصور والمباني الحضرية، والفيلات، والأحواش، ذات الطابع الإسلامي، ومنها : قصر مصطفى باشا، وقصر أحمد باي بقسنطينة، ودار عزيزة في العاصمة، كما ذكر عددا من المتاحف التي أُنشئت في جهات في المدن الكبرى .

وتحدث الدكتور أبو القاسم سعد الله عن الرسام الفرنسي (إيتيان ديني) الذي اعتنق الإسلام وحمل اسم (ناصرالدين) واستعرض نشاطه الفني من خلال أبرز أعماله الفنية ذات الطابع الإسلامي .

ومن الفنون التي برز فيها الجزائريون أيضا فني النقش والخطاطة، ومن أبرز النقاشين الجزائريين يوسف الحفاف، وابن المكي، وعمر بن سماية، وممن عُرف بالخط الجميل والتفنن فيه الشيخ أبو يعلى الزواوي، وهو من كتاب المصاحف، أما في مجال الرسم فاشتهرت عائلة (راسم)، ومنهم : عمر راسم، ومحمد راسم الذي اشتهر بفن المنمنمات، وحميش التلمساني، وأزواو معمري، وميلود بوكرش، وحسن بن عبورة، وعمر دهينة، وأحمد بن قدور، وإيسياخم، وغيرهم .

ويعود في هذا الفصل أيضا إلى المسرح باعتباره يمثل وجها فنيا، ليشير إلى الحاج عيواز بطل مسرح خيال الظل (الكراكوز) في الجزائر، ثم يستعرض جملة من الأعلام ومؤلفاتهم، مثل: سعد الدين بن شنب، ومحي الدين باش تارزي، وعبد القادر جغلول، وعبد القادر العربي، ورشيد بن شنب. وقد نبه إلى أن تأخر ظهور المسرح في الجزائر سببه فرنسا، لأنه يحمل مضامين نقدية لسياسته، ثم استعرض تطور ه في المجتمع الجزائري، ذاكر ا أعلامه، ومسرحياتهم، وموضوعاتها.

وآخر ما نقرأه في نهاية الفصل هو عودته إلى الموسيقى، ليشير إلى دور الإنشاد والمدائح عند الصوفية، وطرق الأداء باستعمال وسائل معروفة في المجتمع، كالطبل والآلات النحاسية، والقيام بحركات مصاحبة للأداء، ومن الآلات الموسيقية المستعملة : الربابة، والقيثارة، والطار، والبانجو، والقانون، والناي، والزرنه، والدربوكة . ثم توقف عند جملة من الآراء في الموسيقى، من خلال أعمال من اهتم بهذا الفن، مثل : إسماعيل حامد، والقاضي شعيب، وعبد الرحمن السقال، ومحمد بخوشة، وأحمد توفيق المدني، ومحمد زروقي، وطالبي، ثم ذكر ما تتميز به بعض المناطق من طبوع موسيقية، مُشيرا إلى أن الموسيقى الجزائرية رغم عراقتها فإنها ذات صلة بالتراث الأندلسي، كما تلقت تأثيرات مشرقية، ولاسيما من مصر، كما أشار إلى أنواع الغناء الذي يؤدى في المناطق المختلفة من الجزائر .

إن هذا التتبع للحراك الثقافي في الجزائر، في الأجزاء المختلفة من الكتاب، لم يأت بسهولة، إذ رجع فيه المؤلف إلى مئات من المصادر والمراجع، والوثائق، والمخطوطات، والآثار، والوسائل المادية ؛ في مكتبات، ومتاحف وخزانات، وزوايا، وأقبية، ومراكز بحث في شتى أنحاء الجزائر، وفي خارجها في كبريات الجامعات، والمراكز البحثية، والمتاحف ؛ شرقا وغربا، وما أفاده من الأرشيف الفرنسي كان غزيرا، إذا أن الكثير من أوجه النشاط الثقافي والفكر في العهدين العثماني والفرنسي مُستمد من كتابات الفرنسيين.

وقد نبه الأستاذ في أكثر من موضع إلى أن المتعامل مع هذه الكتابات ينبغي أن يكون حذرا، وألا يقبل كل ما يُقال، بل على الباحث أن يعمل فكره ويرجح ما هو أقرب إلى الحقيقة.

فالله نسأل لأستاذنا وشيخنا الصحة والعافية وطول العمر، والتوفيق لاستكمال المرحلة السابقة (العصور الوسطى)، لتكتمل حلقات التاريخ الثقافي للجزائر عبر العصور المختلفة .

الجزء التاسع: يقع في (377) صفحة، وقد ضم سبعة فهارس، هي:

1- فهرس الأشخاص.
2- فهرس الأماكن.
3- فهرس الكتب والدوريات والجرائد.
4- فهرس الشعوب والقبائل.
5- فهرس المذاهب والطرق الصوفية.
6- فهرس الأحزاب والجمعيات والمؤتمرات.
7- فهرس المؤسسات والمراكز الدينية والفنية والثقافية.

وقد قدم لهذه الفهارس بمقدمة شرح فيها منهجه في إعدادها، حتى يتسنى للقارئ الوصول إلى المادة التي يرغب في الاطلاع عليها في الكتاب بسهولة، ثم أعقب هذه المقدمة

بشـرح جملـة مـن الألفـاظ والمصـطلحات المسـتعملة في البيئـة الجزائريـة أو في اللغـة العربيـة المعاصرة، مما ورد في الكتاب .

وبعد هذا العرض المقتضب لمحتويات الموسوعة التي وقعت في تسعة أجزاء، أستأذن شيخي الكريم وأستاذ الأجيال الدكتور(أبو القاسم سعد الله) في أن ألفت انتباه زملائي الأساتذة في الجامعات الجزائرية، ومراكز البحث العلمي على اختلاف مناشطها واهتماماتها العلمية، وكذلك الدارسين المبتعثين - من أبناء الوطن – إلى الجامعات خارج الوطن، والدارسين داخل الوطن لالتفات إلى هذه الموسوعة الثقافية النادرة التي جادت بها قريحة أستاذ الأجيال حول الحركة الثقافية والفكرية في الجزائر التي غطتها موسوعة (تاريخ الجزائر الثقافي)، والتي شملت –كما رأينا- شتى حقول المعرفة الإنسانية، وذلك بتوجيه الباحثين ؛ من أساتذة وطلبة دراسات عليا، لأجل استثمارها في أبحاثهم التي ينجزونها عبر شبكة المخابر الوطنية، والرسائل الأكاديمية (ماجستير، ودكتوراه)أو غيرها من الأبحاث والدراسات في شتى التخصصات المعرفية .

إن هذه الموسوعة غنية بمادتها الفكرية والثقافية، وهي صالحة – في رأيي – لأن تكون منطلقا لمئات الأبحاث في مختلف المجالات المعرفية، من لغة، ومعاجم، ونحو، وشعر، وأدب، ومسرح، وتاريخ، وتراجم، وسير، وأنساب، ورحلات، واجتماع، وسياسة، وفقه، وأصول، وعقائد، وتفسير، وقراءات، وحديث، وإجازات، وتصوف، وطب، وزراعة، وفلك، ومنطق، وفلسفة، وقضاء، ونوازل، ورياضيات، وجغرافيا، وكيمياء، موسيقى، ورسم، ومنمنمات، وغير ذلك مما يتعلق بالآثار، والمؤسسات، كالمكتبات، والمساجد، والزوايا، والقصور .

إن المادة التي جمعها أستاذنا من خلال رحلاته مع المصادر والمراجع التي وقف عليها في الجامعات ومراكز البحث على اختلاف اهتماماتها ؛ داخل الوطن وخارجه، في أنحاء مختلفة من العالم، ولاسيما المخطوطات التي أنتجها علماؤنا عبر العصور المختلفة، ولم تر النور بعد، هذه المادة الخام بحاجة إلى دراسة وتحليل واستقراء ونقد، لاستخراج الدرر منها، ووضعها في متناول الأجيال من أبناء المجتمع للاستفادة منها، كل في مجاله، ولا أجانب الصواب إذا قلت : إن خير ما يربط البحث العلمي في جامعاتنا ومراكزنا البحثية بالتنمية الوطنية هو أن نولي وجهة نظرنا نحو هذا الكنز الذي وضعه بين أيدينا الدكتور أبو القاسم سعد الله .

نسأل الله لشيخنا الصحة والسلامة وطول العمر، ونأمل أن نرى قريبا ما ألمح إليه في أكثر من مناسبة، وهو استكمال المرحلة الأولى لتشكُل ثقافتنا (من الفتح الإسلامي إلى 1500م) .